الصّحافة: عن نجيب بلخوجة محاولة اغتيال ثانية

بتاريخ 8 ماي 2007 غادرنا نجيب بلخوجة ليترك لنا ولكل مهتم بالشأن الإبداعي على المستوى الكوني تراثا هاما من اللوحات وحتى من التصاميم النحتية. بالتزامن مع ذكرى وفاته نظم رواق المرسى معرضا تكريميا له ضم اعمالا لنجيب بلخوجة تعود لفترات متباعدة في الزمن وهي على ملك مقتنين خواص نذكر من بينهم فضاء كان وبنك الامان. لقد كانت التفاتة رواق المرسى لذكرى الفنان كفيلة بأن تذكرني بما قاله لي نجيب بلخوجة قبل وفاته بفترة انه يكن كل التقدير لصاحب رواق المرسى ذلك انه قبل أن يفتتح الرواق قصده عارضا عليه فكرة أن يكون أحد فناني الرواق وقد كان ذلك عنوان الاحترافية في ساحة ضيقة ومليئة بالتجار الذين يهمهم الكسب السريع ولو على حساب الفنان خاصة اذا كان هذا الفنان يحمل اسم نجيب بلخوجة مبدع لكنه ذو شخصية جدالية وصاحب مواقف مبدئية وهو الذي حمل على كتفيه معركة التجديد في الفن التونسي وتخليصه من عباءة الفولكلور مما جعله يتعرض للتهميش في ساحة كانت تعاني ايضا من محدودية في تعدد ذائقة التقبل خاصة لدى المقتنين.

يمكننا تصور درجة معاناة نجيب بلخوجة اذا أضفنا إلى ذلك معلومة اساسية ألا وهي أنه اختار التفرغ والعيش من فنه..فن لا يطعم ولا يسمن من جوع.

في نهاية الاسبوع المنقضي وحيث توجد لوحاته برواق المرسى كان هناك لقاء جمع نخبة قليلة من المهتمين والعارفين بشخص وفن نجيب بلخوجة.كانت هناك زوجته السيدة نجاة الهرماسي بلخوجة والتي تعمل الكثير لحفظ تراثه وذاكرته. الى جانبها نذكر حضور الكاتب والناقد علي اللواتي وايضا الكاتب فرج شوشان والذي كان صديقا مقربا لنجيب بلخوجة وقدم عدة نصوص لمعارضه.حضرت ايضا السيدة فوزية الساحلي صديقة الفنانين والرئيسة السابقة للجنة اقتناءات الدولة للاعمال الفنية وصاحبة التجربة المهمة والريادية في اقتناءات احد البنوك الخاصة في تلك العقود التي كان فيها الفن يعني الكثير لبلد ناشئ منفتح.

خلال هذا اللقاء تحدث الجميع عن نجيب بلخوجة عن فنه وعن شخصيته وعن صراعاته واختلافته مع جماعة مدرسة تونس.تحدث الجميع عن اهمية فنه وبعده الريادي المغاربي والعربي.

لم يكن اللقاء مقتصرا على الماضي بل وايضا على ضرورة حفظ ذاكرة هذا المبدع الاستثنائي وتنظيم معرض ضخم استيعادي مصحوب بكتالوغ يليق بمكانته.كانت هناك مقترحات هامة وقابلة للتحقيق.

يبدو كلامي عاديا فهذا نجيب بلخوجة فنان هام، واستثنائي فمن الطبيعي ان يكون محاطا بدائرة من المهتمين والباحثين عن سبل حفظ تراثه وقامته الفنية والتعريف بها لدى الاجيال الجديدة،هذا طبيعي الى درجة المثالية في ساحة لم تكن ابدا في وضع طبيعي عانى فيها المبدعون حالات الجوع والفقر والنهب والاشاعات المغرضة ونهش اللحم والعظام من طرف سماسرة شعارهم تلك المقولة الشهيرة «الفنان الجيّد هو الفنان الميّت».

أذكر انه وفي سنوات مرضه والذي كاد يودي بحياته شهدت لوحات نجيب بلخوجة ارتفاعا في أسهمها وهذا ما يعنيه الفنان الجيد هو الفنان الميّت.

في حياته كانت معلومة بسيطة تخص ذائقته المالية كفيلة بتحريك خطوات أولئك السماسرة لاقتناء لوحاته بأسعار زهيدة وكم آلمه ذلك وضاعف من معاناته. على تلك الصيغة كانت تتم محاولة اغتياله ولكنه صمد بعد عذاب وقاوم وجالد الى أن عرفت لوحاته في السنوات الأخيرة من عمره بعض المكانة التي تستحق سواء من طرف الخواص أو الدولة.

قلنا الأمر غير طبيعي ذلك أنه من المؤسف ان تتحرك بعض الألسن، على قلتها لتقول بأن المعرض الحالي برواق المرسى يضم اعمالا مزيّفة وذلك رغم درايتها بأن الأعمال الموجودة غير مخصصة للبيع وان أصحابها من المقتنين احياء يرزقون وهم اصحاب مؤسسات محترمة غير معنية بمثل هذه الخزعبلات.

الطريف ان تلك الألسن الخبيثة اختفت ولم تتحلّ بالشجاعة لحضور اللقاء المذكور حول نجيب بلخوجة برواق المرسى، رغم انه وجهت لها الدعوة.

احدهم ليس الا تاجر اعمال فنية اغلق محلاته منذ سنوات وهو معروف بالتحيّل على الفنانين سواء التونسيين أو العرب وخاصة منهم العراقيين الذين اطلقوا عليه صفة الذباح، وآخر محاولة له في هذا الشأن كانت منذ سنوات قليلة عندما قدم الى تونس صاحب رواق عراقي حاملا اعمال الفنان شاكر حسن آل سعيد ضمن معرض متجول مدعوم من طرف منظمة الأمم المتحدة.

وبعد وصول الأعمال قام هذا المتحيل بتسلم الأعمال واخفائها ثم مطالبة صاحب الرواق العراقي بتوكيل الورثة وذلك قصد إغراقه في متاهات قانونية وتعجيزه ومن ثمة الاستيلاء على الأعمال. حصل ذلك سنة 2005 وتم حل الإشكال بعد أن كتبنا عن الموضوع ضمن ملحق الرواق وتدخل الديوانة التونسية لفائدة صاحب الرواق وتحويل وجهة المعرض الى متحف مدينة تونس.

لقد عرف نجيب بلخوجة الويلات مع هذا الذي أراد من جديد اغتياله من خلال أعماله هذه المرة بالتشويه أو على أقل تقدير بعدم التثبت والتروي.

لماذا يفعلون ذلك، في اعتقادنا أن الأمر يتعلق بدرجة من التشفي المجاني ويندرج ضمن محاولة لإعدام تراث الفقيد بالاستفادة من وضعية عامة هيكلية يعيشها القطاع الذي يفتقر لمؤسسات قادرة على حفظ الذاكرة والتوثيق.

لقد كان بإمكان هذه الإشاعة أن تمر وتضرب في الصميم لو تعلقت بفنان آخر مثل الحبيب بوعبانة أو بأعمال أحد الرواد. أما مع نجيب بلخوجة فهي ما كان لها أن تنجح لسبب وجيه أنه لم يكن وكما يقول المثل «حبل أتى به الواد» ذلك أنه كان في حياته محاطا بأناس (زوجته وأصدقائه منهم خاصة فرج شوشان). ممن كانوا يتابعون عمله ومراحل كل لوحة، خاصة وأن نجيب بلخوجة كان يمضي فترات عمل طويلة لإنجاز كل لوحة، حتى أننا نجد في المعرض المذكور برواق المرسى إحدى اللوحات وقد تم في الجانب الخلفي تدوين السنة التي عاد فيها الفنان لتعديد ألوانها بالإضافة إلى المسح. الى جانب جود كمّ من الصور التي توثق مراحل رسم كل لوحة.

أن مشهدنا التشكيلي يحتاج الى البناء والتأسيس الايجابي كما يحتاج الى اليقظة ضد من يحاولون ولأسباب دنيئة إغراقه في قضايا وهمية تعمق جروحه ومصائبه.